❁ ❁ ❁

تفسير سورة والشمس وضحاها

وهي مكية. تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ و ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾؟».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

قال مجاهد: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ أي: وضوئها. وقال قتادة: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾: النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار. ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾: قال مجاهد: تبعها. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ قال: يتلو النهار. وقال قتادة: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رؤي الهلال. وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه. وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: إذا تلاها ليلة القدر. وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾: قال مجاهد: أضاء. وقال قتادة: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾: إذا غشيها النهار. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة، لدلالة الكلام عليها. قلت: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ أي: البسيطة، لكان أولى، ولصح تأويله في قول الله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾، فكان أجود وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ إنه كقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ٢]. وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على الشمس، لجريان ذكرها. وقالوا في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ يعني: إذا يغشى الشمس حين تغيب، فتظلم الآفاق. وقال بقيَّة بن الوليد، عن صفوان، حدثني يزيد بن ذي حمامة قال: إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله: غشي عبادي خلقي العظيم، فالليل يهابه، والذي خلقه أحق أن يهاب. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾: يحتمل أن يكون «ما» ها هنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها. وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى «من» يعني: والسماء وبانيها. وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم، والبناء هو الرفع، كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]. وهكذا قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا

طَحَاهَا ﴿٦﴾ﵞ: قال مجاهد: ﴿طَحَاهَا﴾: دحاها. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾ أي: خلق فيها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿طَحَاهَا﴾: قسمها. وقال مجاهد، وقتادة والضحاك، والسُّدي، والثوري، وأبو صالح، وابن زيد: ﴿طَحَاهَا﴾: بسطها. وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته، أي: بسطته. وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾ أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصرانه أو يُمجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟». أخرجاه من رواية أبي هريرة. وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعي، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي حُنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم». وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي: بين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾: بين لها الخير والشر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والثوري.

وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر. وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى وأبو عاصم النبيل قالا: حدثنا عزرة بن ثابت، حدثني يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يَعْمَر، عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يُستقبلُون مما أتاهم به نبيهم ﷺ، وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضي عليهم. قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فزعاً شديداً، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خلقُه وملك يده، لا يسألُ عما يفعل وهم يسألون. قال: سددك الله، إنما سألت لأخبر عقلك، إن رجلاً من مُزينة ـ أو جهينة ـ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم، وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قد قضي عليهم». قال: ففيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يُهيِّئه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾». رواه أحمد ومسلم، من حديث عَزْرَة بن ثابت به. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾: يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، أي: بطاعة الله ـ كما قال قتادة ـ وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ويُروى نحوه عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير. وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ أي: دسسها، أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهُدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ. وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دسَّى الله نفسه، كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي وأبو زُرْعة قالا: حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا أبو مالك ـ يعني عمرو بن هشام ـ عن جُويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ قال النبي ﷺ: «أفلحت نفس زكاها الله». ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي مالك، به. وجويبر هذا: هو ابن سعيد، متروك الحديث، والضحاك لم يلق ابن عباس.

وقال الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبي، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ وقف، ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاها». **حديث آخر**: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا يعقوب بن حميد المدني، حدثنا عبد الله بن عبد الله الأموي، حدثنا معن بن محمد الغفاري، عن حنظلة بن علي الأسلمي، عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها». لم يخرجوه من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن نافع ـ يعني ابن عمر ـ عن صالح بن سُعيد، عن عائشة: أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب، أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها» تفرد به. **حديث آخر**: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عاصم الأحول، عن عبد الله بن الحارث، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل والهرم، والجُبن والبخل وعذاب القبر. اللهم، آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم، إني أعوذ بك من قَلْب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها». قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن. رواه مسلم من حديث أبي معاوية، عن عاصم

الأحول، عن عبد الله بن الحارث ـ وأبي عثمان النهدي، عن زيد بن أرقم، به.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي. وقال محمد بن كعب: ﴿بِطَغْوَاهَآ﴾ أي: بأجمعها. والأول أولى، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين. ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ أي: أشقى القبيلة، هو قُدار بن سالف عاقرُ الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩]. وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم، شريفاً في قومه، نسيباً رئيساً مطاعاً، كما قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن زَمْعَة قال: خطب رسول الله ﷺ، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾: انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل زمعة». ورواه البخاري في التفسير، ومسلم في صفة النار، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما، وكذا ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن هشام بن عروة، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن محمد بن خُثَيم، عن محمد بن كعب القرظي، عن محمد بن خُثَيم أبي يزيد عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟». قال: بلى: قال: «رجلان؛ أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا عليّ على هذا ـ يعني قرنه ـ حتى تبتل منه هذه» يعني: لحيته. وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني: صالحاً، عليه السلام: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم. قال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: غضب عليهم، فدمّر عليهم، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها. وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾: وقرىء: «فلا يخاف عقباها». قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة. وكذا قال مجاهد، والحسن، وبكر بن عبد الله المزني، وغيرهم. وقال الضحاك والسدي: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ أي: لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع. والقول الأول أولى؛ لدلالة السياق عليه، والله أعلم.

آخر تفسير «والشمس وضحاها»

❃ ❃ ❃

(٩١) سورة الشمس مكية وآياتها خمس عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ قبل الخوض فى التفسير لابد من مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المقصود من هذه السورة الترغيب فى الطاعات والتحذير من المعاصى . واعلم أنه تعالى ينبه عباده دائماً بأن يذكر فى القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع فى القلب ، فتكون الدواعى إلى تأمله أقوى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد عرفت أن جماعة من أهل الأصول قالوا : التقدير ورب الشمس ورب سائر ما ذكره إلى تمام القسم ، واحتج قوم على بطلان هذا المذاهب ، فقالوا إن فى جملة هذا القسم قوله (والسماء وما بناها) وذلك هو الله تعالى فيلزم أن يكون المراد ، ورب السماء وربها وذلك كالمتناقض ، أجاب القاضى عنه بأن قوله (وما بناها) لا يجوز أن يكون المراد منه هو الله تعالى ، لأن مالا تستعمل فى خالق السماء إلا على ضرب من المجاز ، ولأنه لا يجوز منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه ، ولأنه تعالى لا يكاد يذكر مع غيره على هذا الوجه ، فإذاً لابد من التأويل وهو أن (ما) مع ما بعده فى حكم المصدر فيكون التقدير : والسماء وبنائها ، اعترض صاحب الكشاف عليه فقال لو كان الأمر على هذا الوجه لزم من عطف قوله (فألهمها) عليه فساد النظم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القراء مختلفون فى فواصل هذه السورة وما أشبهها نحو (والليل إذا يغشى ، والضحى والليل إذا سجى) فقرءوها تارة بالإمالة وتارة بالتفخيم وتارة بعضها بالإمالة وبعضها بالتفخيم ، قال الفراء بكسر ضحاها ، والآيات التى بعدها وإن كان أصل بعضها الواو نحو : تلاها ، وطحاها ودحاها ، فكذلك أيضاً . فإنه لما ابتدئت السورة بحرف الياء أتبعها بما هو من الواو لأن الألف المنقلبة عن الواو قد توافق المنقلبة عن الياء ، ألا ترى أن تلوت وطحوت ونحوهما قد يجوز فى أفعالها أن تنقلب إلى الياء نحو : تلى ودحى ، فلما حصلت هذه الموافقة استجاوزا إمالته

كما استجازوا إمالة ماكان من الياء ، وأما وجه من ترك الإمالة مطلقاً فهو أن كثيراً من العرب لا يميلون هذه الألفات ولا ينحون فيها نحو الياء ، ويقوى ترك الإمالة للألف أن الواو فى موسر منقلبة عن الياء ، والياء فى ميقات وميزان منقلبة عن الواو ولم يلزم من ذلك أن يحصل فيه ما يدل على ذلك الانقلاب ، فكذا ههنا ينبغى أن تترك الألف غير ممالة ولا ينحى بها نحو الياء ، وأما إمالة البعض وترك إمالة البعض ،كما فعله حمزة فحسن أيضاً ، وذلك لأن الألف إنما تمال نحو الياء لتدل على الياء إذا كان انقلابها عن الياء ولم يكن فى تلاها وطحاها ودحاها ألف منقلبة عن الياء إنما هى منقلبة عن الواو بدلالة تلوت ودحوت .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أن الله تعالى قد أقسم بسبعة أشياء إلى قوله (قد أفلح) وهو جواب القسم ، قال الزجاج : المعنى لقد أفلح ، لكن اللام حذفت لأن الكلام طال فصار طوله عوضاً منها .

قوله تعالى (والشمس وضحاها) ذكر المفسرون فى ضحاها ثلاثة أقوال ، قال مجاهد والكلبى ضوؤها ، وقال قتادة هو النهار كله ، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة ، وقال مقاتل هو حر الشمس ، وتقرير ذلك بحسب اللغة أن نقول ، قال الليث : الضحو ارتفاع النهار ، والضحى فويق ذلك ، والضحاء ممدوداً امتد النهار ، وقرب أن ينتصف . وقال أبو الهيثم : الضح نقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الأرض وأصله الضحى ، فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها وقالوا ضح ، فالضحى هو ضوء الشمس ونورها ثم سمى به الوقت الذى تشرق فيه الشمس على ما فى قوله تعالى (إلا عشية أوضحاها) فمن قال من المفسرين فى ضحاها ضوؤها فهو على الأصل ، وكذا من قال هو النهار كله ، لأن جميع النهار هو من نور الشمس ، ومن قال فى الضحى إنه حر الشمس فلأن حرها ونورها متلازمان ، فمتى اشتد حرها فقد اشتد ضوؤها وبالعكس ، وهذا أضعف الأقوال ، واعلم أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح ، فإن أهل العالم كانوا كالأموات فى الليل ، فلما ظهر أثر الصبح فى المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة ، فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة فى الازدياد والقوة والتكامل ، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة ، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها ، وقوله (والقمر إذا تلاها) قال الليث : تلا يتلو إذا تبع شيئاً وفى كون القمر تالياً وجوه (أحدها) بقاء القمر طالعاً عند غروب الشمس ، وذلك إنما يكون فى النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس ، فإذا القمر يتبعها فى الإضاءة ، وهو قول عطاء عن ابن عباس (وثانيها) أن الشمس إذا غربت فالقمر يتبعها ليلة الهلال فى الغروب ، وهو قول قتادة والكلبى (وثالثها) قال الفراء المراد من هذا التلو هو أن القمر يأخذ الضوء من الشمس يقال فلان يتبع فلاناً فى كذا أى يأخذ منه (ورابعها) قال الزجاج تلاها حين استدار وكمل ، فكأنه يتلو الشمس فى الضياء والنور يعنى إذا كمل ضوؤه فصار كالقائم مقام الشمس فى الإنارة ، وذلك فى الليالى

وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾

البيض (وخامسها) أنه يتلوها فى كبر الجرم بحسب الحس ، وفى ارتباط مصالح هذا العالم بحركته ، ولقد ظهر فى علم النجوم أن بينهما من المناسبة ما ليس بين الشمس وبين غيرها .

قوله تعالى : ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ معنى التجلية الإظهار ، والكشف والضمير فى جلاها إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان (أحدهما) وهو قول الزجاج أنه عائد إلى الشمس وذلك لأن النهار عبارة عن نور الشمس . فكلما كان النهار أجلى ظهوراً كانت الشمس أجلى ظهوراً ، لأن قوة الأثر وكماله تدل على قوة المؤثر ، فكان النهار يبرز الشمس ويظهرها ، كقوله تعالى (لا يجليها لوقتها إلا هو) أى لا يخرجها (الثانى) وهو قول الجمهور ـ أنه عائد إلى الظلمة ، أو إلى الدنيا ، أو إلى الأرض . وإن لم يجر لها ذكر ، يقولون : أصبحت باردة يريدون الغداة ، وأرسلت يريدون السماء .

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ يعنى يغشى الليل الشمس فيزيل ضوءها ، وهذه الآية تقوى القول الأول فى الآية التى قبلها من وجهين (الأول) أنه لما جعل الليل يغشىء الشمس ويزيل ضوءها حسن أن يقال النهار يجليها ، على ضد ما ذكر فى الليل (والثانى) أن الضمير فى يغشاها للشمس بلا خلاف ، فكذا فى جلاها يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير فى الفواصل من أول السورة إلى ههنا للشمس ، قال القفال : وهذه الأقسام الأربعة ليست إلا بالشمس فى الحقيقة لكن بحسب أوصاف أربعة (أولها) الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار . وذلك هو الوقت الذى يكمل فيه انتشار الحيوان واضطراب الناس للمعاش ، ومنها تلو القمر لها وأخذه الضوء عنها ، ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجىء النهار ، ومنها وجود خلاف ذلك بمجىء الليل ، ومن تأمل قليلا فى عظمة الشمس ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهى ، والتركب من الأجزاء انتقل منه إلى عظمة خالقها ، فسبحانه ما أعظم شأنه .

قوله تعالى : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ فيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أن الذى ذكره صاحب الكشاف من أن (ما) ههنا لو كانت مصدرية لكان عطف (فألهمها) عليه يوجب فساد النظم حق ، والذى ذكره القاضى من أنه لو كان هذا قسما بخالق السماء ، لما كان يجوز تأخيره عن ذكر الشمس ، فهو إشكال جيد ، والذى يخطر ببالى فى (الجواب عنه) أن أعظم المحسوسات هو الشمس ، فذكرها سبحانه مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها ، ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك ووصفها بصفات ثلاثة وهى تدبيره سبحانه للسماء والأرض وللمركبات ، ونبه على المركبات بذكر أشرفها وهى النفس ، والغرض من هذا الترتيب هو أن يتوافق العقل والحس على عظمة جرم الشمس ثم يحتج العقل الساذج بالشمس ، بل بجميع السماويات والأرضيات والمركبات على إثبات مبدىء لها ، فحينئذ يحظى العقل ههنا بإدراك

وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾

جلال الله وعظمته على ما يليق به ، والحس لا ينازعه فيه . فكان ذلك كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يفاع عالم الربوبية ، وبيداء كبرياء الصمدية ، فسبحان من عظمت حكمته وكلت كلمته .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الفائدة فى قوله (والسماء وما بناها) ؟ (الجواب) أنه سبحانه لما وصف الشمس بالصفات الأربعة الدالة على عظمتها ، أتبعه ببيان ما يدل على حدوثها وحدوث جميع الأجرام السماوية ، فنبه بهذه الآية على تلك الدلالة ، وذلك لأن الشمس والسماء متناهية ، وكل متناه فإنه مختص بمقدار معين . مع أنه كان يجوز فى العقل وجود ما هو أعظم منه ، وما هو أصغر منه . فاختصاص الشمس وسائر السماويات بالمقدار المعين ، لابد وأن يكون لتقدير مقدر وتدبير مدبر ، وكما أن بانى البيت يبنيه بحسب مشيئته ، فكذا مدبر الشمس وسائر السماويات قدرها بحسب مشيئته ، فقوله (وما بناها) كالتنبيه على هذه الدقيقة الدالة على حدوث الشمس وسائر السماويات .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال (وما بناها) ولم يقل ومن بناها ؟ (الجواب) من وجهين (الأول) أن المراد هو الإشارة إلى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء وذلك الشىء العظيم القادر الذى بناها ، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذى سواها (والثانى) أن ما تستعمل فى موضع من كقوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) والاعتماد على الأول .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم ذكر فى تعريف ذات الله تعالى هذه الأشياء الثلاثة وهى السماء والأرض والنفس ؟ (والجواب) لأن الاستدلال على الغائب لا يمكن إلا بالشاهد ، والشاهد ليس إلا العالم الجسمانى وهو قسمان بسيط ومركب ، والبسيط قسمان : العلوية وإليه الإشارة بقوله (والسماء) والسفلية وإليه الإشارة بقوله (والأرض) والمركب هو أقسام ، وأشرفها ذوات الأنفس وإليه الإشارة بقوله (ونفس وماسواها) .

قوله تعالى : ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما أخر هذا عن قوله (والسماء وما بناها) لقوله (والأرض بعد ذلك دحاها) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الليث : الطحو كالدحوا وهو البسط ، وإبدال الطاء من الدال جائز ، والمعنى وسعها . قال عطاء والكلبى : بسطها على الماء .

قوله تعالى : ﴿ ونفس وما سوها ﴾ إن حملنا النفس على الجسد ، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح ، وإن حملناها على القوة المدبرة ، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾

كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكورة ، على ما يشهد به علم النفس (١) فإن قيل لم نكرت النفس ؟ قلنا فيه وجهان (أحدهما) أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس ، وهى النفس القدسية النبوية ، وذلك لأن كل كثرة ، فلابد فيها من واحد يكون هو الرئيس ، فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان ، والحيوان جنس تحته أنواع ورئيسها الإنسان ، والإنسان أنواع وأصناف ورائيسها النبى . والأنبياء كانوا كثيرين ، فلا بد وأن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق ، فقوله (ونفس) إشارة إلى تلك النفس التى هى رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات (الثانى) أن يريد كل نفس ، ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور فى قوله (علمت نفس ما أحضرت) وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله على ما قال بعد ذكر بعض الحيوانات (ويخلق مالا تعلمون) ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالفصل المقوم لماهيته ، والخواص اللازمة لذلك الفصل ، فمن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض ، فضلا عن التوغل فى بحار أسرار الله سبحانه .

أما قوله تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فالمعنى المحصل فيه وجهان (الأول) أن إلهام الفجور والتقوى ، إفهامها وإعقالها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح وتمكينه من اختيار ماشاء منهما ، وهو كقوله (وهديناه النجدين) وهذا تأويل مطابق لمذاهب المعتزلة ، قالوا ويدل عليه قوله بعد ذلك (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) وهذا الوجه مروى عن ابن عباس وعن جمع من أكابر المفسرين (والوجه الثانى) أنه تعالى ألهم المؤمن المتقى تقواه وألهم الكافر فجوره ، قال سعيد بن جبير : ألزمها فجورها وتقواها ، وقال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها بالفجور ، واختار الزجاج والواحدى ذلك ، قال الواحدى التعليم والتعريف والتبيين ، غير والإلهام غير ، فإن الإلهام هو أن يوقع الله فى قلب العبد شيئاً ، وإذا أوقع فى قلبه شيئاً فقد ألزمه إياه . وأصل معنى الإلهام من قولهم : لهم الشىء ، والتهمه إذا ابتلعه ، وألهمته ذلك الشىء أى أبلعته ، وهذا هو الأصل ثم استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى فى قلب العبد ، لأنه كالإبلاغ ، فالتفسير الموافق لهذا الأصل قول ابن زيد ، وهو صريح فى أن الله تعالى خالق فى المؤمن تقواه ، وفى الكافر فجوره ، وأما التمسك بقوله (قد أفلح من زكاها) فضعيف لأن المروى عن سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبى أن المعنى قد أفلحت وسعدت نفس زكاها الله تعالى وأصلحها وطهرها ، والمعنى وفقها للطاعة ، هذا آخر كلام الواحدى وهو تام . وأقول قد ذكرنا أن الآيات الثلاثة ذكرت للدلالة على كونه سبحانه مدبراً للأجسام العلوية والسفلية البسيطة والمركبة ، فههنا لم يبق شىء مما فى عالم المحسوسات إلا وقد ثبت بمقتضى ذلك التنبيه أنه واقع بتخليقه وتدبيره ، بقى شىء

(١) يريد بعلم النفس هنا : علم التشريح ، لا علم النفس بالمعنى الذى نعرفه الآن وإن كان يتناول ما ذكره .

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

واحد يختلج فى القلب أنه هل هو بقضائه وقدره وهو الأفعال الحيوانية الاختيارية ، فنبه سبحانه بقوله (فألهمها فجورها وتقواها) على أن ذلك أيضاً منه وبه وبقضائه وقدره ، وحينئذ ثبت أن كل ما سوى الله فهو واقع بقضائه وقدره . وداخل تحت إيجاده وتصرفه . ثم الذى يدل عقلا على أن المراد من قوله (فألهمها فجورها وتقواها) هو الخذلان والتوفيق ما ذكرنا مراراً أن الأفعال الاختيارية موقوفة على حصول الاختيارات ، لحصولها إن كان لاعن فاعل فقداستغنى المحدث عن الفاعل ، وفيه نفى الصانع ، وإن كان عن فاعل هوالعبد لزم التسلسل ، وإن كان عن الله فهو المقصود . وأيضاً فليجرب العاقل نفسه ، فانه ربما كان الإنسان غافلا عن شىء فتقع صورته فى قلبه دفعة ، ويترتب على وقوع تلك الصورة فى القلب ميل إليه ، ويترتب على ذلك الميل حركة الأعضاء وصدور الفعل ، وذلك يفيد القطع بأن المراد من قوله (فألهمها) ماذكرناه لاما ذكره المعتزلة .

قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ فاعلم أن التزكية عبارة عن التطهير أو عن الإنماء ، وفى الآية قولان (أحدهما) أنه قد أدرك مطلوبه من زكى نفسه بأن طهرها من الذنوب بفعل الطاعة ومجانبة المعصية (والثانى) قد أفلح من زكاها الله ، وقبل القاضى هذا التأويل ، وقال المراد منه أن الله حكم بتزكيتها وسماها بذلك ، كما يقال فى العرف : إن فلاناً يزكى فلاناً ، ثم قال والأول أقرب ، لأن ذكر النفس قد تقدم ظاهراً ، فرد الضمير عليه أولى من رده على ما هو فى حكم المذكور لا أنه مذكور .

واعلم أنا قد دللنا بالبرهان القاطع أن المراد بألهمها ما ذكرناه فوجب حمل اللفظ عليه . وأما قوله بأن هذا محمول على الحكم والتسمية فهو ضعيف ، لأن بناء التفعيلات على التكوين ، ثم إن سلمنا ذلك لكن ما حكم الله به يمتنع تغييره ، لأن تغير المحكوم به يستلزم تغيير الحكم من الصدق إلى الكذب ، وتغير العلم إلى الجهل وذلك محال ، والمفضى إلى المحال محال . أما قوله ذكر النفس قد تقدم ، قلنا هذا بالعكس أولى ، فإن أهل اللغة اتفقوا على أن عود الضمير إلى الأقرب أولى من عوده إلى الأبعد ، وقوله (فألهمها) أقرب إلى قوله (ما) منه إلى قوله (ونفس) فكان الترجيح لما ذكرناه ، ومما يؤكد هذا التأويل ما رواه الواحدى فى البسيط عن سعيد ابن أبى هلال أنه عليه السلام كان إذا قرأ (قد أفلح من زكاها) وقف وقال « اللهم آت نفسى تقواها ، أنت وليها وأنت مولاها ، وزكها أنت خير من زكاها » .

قوله تعالى : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ فقالوا (دساها) أصله دسسها من التدسيس ، وهو إخفاء الشىء فى الشىء ، فأبدلت إحدى السينات ياء ، فأصل دسى دسس ، كما أن أصل تقضى البازى تقضض البازى ، وكما قالوا البيت والأصل لبيت ، وملبى والأصل ملبب ، ثم نقول : أما

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾

المعتزلة فذكروا وجوهاً توافق قولهم (أحدها) أن أهل الصلاح يظهرون أنفسهم ، وأهل الفسق يخفون أنفسهم ويدسونها فى المواضع الخفية ، كما أن أجواد العرب ينزلون الربا حتى تشتهر أماكنهم ويقصدهم المحتاجون ، ويوقدون النيران بالليل للطارقين . وأما اللئام فإنهم يخفون أماكنهم عن الطالبين (وثانيها) (خاب من دساها) أى دس نفسه فى جملة الصالحين وليس منهم (وثالثها) (من دساها) فى المعاصى حتى انغمس فيها (ورابعها) (من دساها) من دس فى نفسه الفجور ، وذلك بسبب موظبته عليها ومجالسته مع أهلها (وخامسها) أن من أعرض عن الطاعات واشتغل بالمعاصى صار خاملا متروكا منسياً ، فصار كالشىء المدسوس فى الاختفاء والخمول . وأما أصحابنا فقالوا : المعنى خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى وأغواها وأفجرها وأبطلها وأهلكها ، هذه ألفاظهم فى تفسير (دساها) قال الواحدى رحمه الله . فكأنه سبحانه أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره وخسار من خذله حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه أو إهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ قال الفراء الطغيان والطغوى مصدران إلا أن الطغوى أشبه برؤس الآيات فاختير لذلك وهو كالدعوى من الدعاء . وفى التفسير وجهان : (أحدهما) أنها فعلت التكذيب بطغيانها ، كما تقول ظلمنى بجراءته على الله تعالى ، والمعنى أن طغيانهم حملهم على التكذيب به هذا هو القول المشهور (والثانى) أن الطغوى اسم لعذابهم الذى أهلكوا به ، والمعنى كذبت بعذابها أى لم يصدقوا رسولهم فيما أنذرهم به من العذاب ، وهذا لا يبعد لأن معنى الطغيان فى اللغة مجاوزة القدر المعتاد فيجوز أن يسمى العذاب الذى جاءهم طغوى لأنه كان صيحة مجاوزة للقدر المعتاد أو يكون التقدير كذبت بما أوعدت به من العذاب ذى الطغوى ويدل على هذا التاويل قوله تعالى (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أى بالعذاب الذى حل بها ، ثم قال (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) فسمى ما أهلكوا به من العذاب طاغية .

قوله تعالى : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ انبعث مطاوع بعث يقال بعثت فلاناً على الأمر فانبعث له ، والمعنى أنه كذبت ثمود بسبب طغيانهم حين انبعث أشقاها وهو عاقر الناقة وفيه قولان (أحدهما) أنه شخص معين واسمه قدار بن سالف ويضرب به المثل يقال : أشأم من قدار ، وهو أشقى الأولين بفتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم (والثانى) يجوز أن يكونوا جماعة ، وإنما جاء على لفظ الوحدان لتسويتك فى أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث تقول : هذان أفضل الناس وهؤلاء أفضلهم ، وهذا يتأكد بقوله (فكذبوه فعقروها) وكان يجوز أن يقال أشقوها كما يقال أفاضلهم .

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فقال لهم رسول ناقة الله وسقياها ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الرسول صالح عليه السلام (ناقة الله) أى أنه أشار إليه لما هموا بعقرها وبلغه ما عزموا عليه ، وقال لهم هى (ناقة الله) وآيته الدالة على توحيده وعلى نبوتى ، فاحذروا أن تقوموا عليها بسوء ، واحذروا أيضاً أن تمنعوها من سقياها ، وقد بينا فى مواضع من هذا الكتاب أنه كان لها شرب يوم ولهم ولمواشيهم شرب يوم ، وكانوا يستضرون بذلك فى أمر مواشيهم ، فهموا بعقرها ، وكان صالح عليه السلام يحذرهم حالا بعد حال من عذاب ينزل بهم إن أقدموا على ذلك ، وكانت هذه الحالة متصورة فى نفوسهم ، فاقتصر على أن قال لهم (ناقة الله وسقياها) لأن هذه الإشارة كافية مع الأمور المتقدمة التى ذكرناها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (ناقة الله) نصب على التحذير ، كقولك الأسد الأسد ، والصبى الصبى بإضمار ذروا عقرها واحذروا سقياها ، فلا تمنعوها عنها ، ولا تستأثروا بها عليها .

ثم بين تعالى أن القوم لم يمتنعوا عن تكذيب صالح ، وعن عقر الناقة بسبب العذاب الذى أنذرهم الله تعالى به وهو المراد بقوله ﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ ثم يجوز أن يكون المباشر للعقر واحداً وهو قدار ، فيضاف الفعل إليه بالمباشرة ، كما قال (فتعاطى فعقر) ويضاف الفعل إلى الجماعة لرضاهم بما فعل ذلك الواحد . قال قتادة : ذكر لنا أنه أبى أن يعقرها حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، وهو قول أكثر المفسرين . وقال الفراء . قيل إنهما كانا اثنين .

قوله تعالى : ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ فاعلم أن فى الدمدمة وجوها (أحدها) قال الزجاج : معنى دمدم أطبق عليهم العذاب ، يقال دمدمت على الشىء إذا أطبقت عليه ، ويقال ناقة مدمومة ، أى قد ألبسها الشحم ، فإذا كررت الإطباق قلت دمدمت عليه . قال الواحدى : الدم فى اللغة اللطخ ، ويقال للشىء السمين كأنما دم بالشحم دماً ، فجعل الزجاج دمدم من هذا الحرف على التضعيف نحو كبكبوا وبابه ، فعلى هذا معنى دمدم عليهم ، أطبق عليهم العذاب وعمهم كالشىء الذى يلطخ به من جميع الجوانب (الوجه الثانى) تقول للشىء يدفن دمدمت عليه ، أى سويت عليه ، فيجوز أن يكون معنى فدمدم عليهم ، فسوى عليهم الأرض بأن أهلكهم فجعلهم تحت التراب (الوجه الثالث) قال ابن الأنبارى : دمدم غضب ، والدمدمة الكلام الذى يزعج الرجل (ورابعها) دمدم عليهم أرجف الأرض بهم رواه ثعلب عن ابن الأعرابى ، وهو قول الفراء ، أما قوله (فسواها) يحتمل وجهين ، وذلك لأنا إن فسرنا الدمدمة بالإطباق والعموم ، كان معنى (فسوى)

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

الدمدمة عليهم وعمهم بها ، وذلك أن هلاكهم كان بصيحة جبريل عليه السلام ، وتلك الصيحة أهلكتهم جميعاً ، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم ، وإن فسرناها بالتسوية ، كان المراد فسوى عليهم الأرض .

قوله تعالى : ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ ففيه وجوه (أولها) أنه كناية عن الرب تعالى إذ هو أقرب المذكورات ، ثم اختلفوا فقال بعضهم لا يخاف تبعة فى العاقبة إذ العقبى والعافية سواء ، كأنه بين أنه تعالى يفعل ذلك بحق . وكل ما فعل ما يكون حكمة وحقاً فإنه لا يخاف عاقبة فعله . وقال بعضهم ذكر ذلك لا على وجه التحقيق لكن على وجه التحقير لهذا الفعل ، أى هو أهون من أن تخشى فيه عاقبة ، والله تعالى يجل أن يوصف بذلك ، ومنهم من قال المراد منه التنبيه على أنه بالغ فى التعذيب ، فإن كل ملك يخشى عاقبة ، فإنه يتقى بعض الاتقاء ، والله تعالى لما لم يخف شيئاً من العواقب ، لا جرم ما اتقى شيئاً (وثانيها) أنه كناية عن صالح الذى هو الرسول أى ولا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذى ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه . لو حاول محاول أن يؤذيه لأجل ذلك (وثالثها) المراد أن ذلك الأشقى الذى هو أحيمر ثمود . فيما أقدم من عقر الناقة (لا يخاف عقباها) وهذه الآية وإن كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير فى حكم المتقدم ، كأنه قال (إذ انبعث أشقاها ، ولا يخاف عقباها) والمراد بذلك ، أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف البتة ، فنسب فى ذلك إلى الجهل والحمق ، وفى قراءة النبى عليه السلام (ولم يخف) وفى مصاحف أهل المدينة والشام (فلا يخاف) والله أعلم ، روى أن صالحاً لما وعدهم العذاب بعد ثلاث ، قال التسعة الذين عقروا الناقة . هلموا فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً فأعجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته . فأتوه ليبيتوه فدمغتهم الملائكة بالحجار ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه لبسوا السلاح وقالوا لهم والله لا تقتلونه قد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً زدتم ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا وجوههم مصفرة فأيقنوا بالعذاب فطلبوا صالحاً ليقتلوه فهرب صالح والتجأ إلى سيد بعض بطون ثمود وكان مشركا فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه ثم شغلهم عنه ما نزل بهم من العذاب ، فهذا هو قوله (ولا يخاف عقباها) والله أعلم ، وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❋

٩١ ــ سورة الشمس

(مكية وهى خمس عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ ٩١ الشمس

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ ٩١ الشمس

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ ٩١ الشمس

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ ٩١ الشمس

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ ٩١ الشمس

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ ٩١ الشمس

أطبقته وأغلقته وقرىء موصدة بغير همزة من أوصدته . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة البلد أعطاه الله تعالى الأمان من غضبه يوم القيامة .

﴿ سورة الشمس مكية وآيها خمس عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والشمس وضحاها) أى ضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها وقيل الضحوة
٢ ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك والضحاء بالفتح والمد إذا امتد النهار وكاد ينتصف (والقمر إذا
تلاها) بأن طلع بعد غروبها وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها وقيل إذا تلاها فى الاستدارة وكمال النور
٣ (والنهار إذا جلاها) أى جلى الشمس فإنها تتجلى عند انبساط النهار فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه
٤ أو جلى الظلمة أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر لها ذكر للعلم بها (والليل إذا يغشاها) أى الشمس فيغطى
ضوءها أو الآفاق أو الأرض وحيث كانت الواوات العاطفة نوائب للواو الأولى القسمية القائمة
مقام الفعل والباء سادة مسدهما معاً فى قولك أقسم بالله حققن أن يعملن عمل الفعل والجار جميعاً كما
٥ تقول ضرب زيد عمراً وبكر وخالداً (والسماء وما بناها) أى ومن بناها وإيثار ما على من لإرادة الوصفية
تفخيما كأنه قيل والقادر العظيم الشأن الذى بناها وجعلها مصدرية مخل بالنظم الكريم وكذا الكلام
٦ فى قوله تعالى (والأرض وما طحاها) أى بسطها من كل جانب كدحاها .

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ٩١ الشمس

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ٩١ الشمس

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ٩١ الشمس

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ٩١ الشمس

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ٩١ الشمس

إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ٩١ الشمس

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ ٩١ الشمس

---

٧ (ونفس وما سواها) أى أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالاتها والتنكير للتفخيم على أن المراد نفس
٨ آدم عليه السلام أو للتكثير وهو الأنسب للجواب (فألهمها فجورها وتقواها) أى أفهمها إياهما
وعرفها حالهما من الحسن والقبح وما يؤدى إليه كل منهما ومكنها من اختيار أيهما شاءت وتقديم
٩ الفجور لمراعاة الفواصل (قد أفلح من زكاها) أى فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنماها
١٠ وأعلاها بالتقوى وهو جواب القسم وحذف اللام لطول الكلام وتكرير قد فى قوله تعالى (وقد
خاب من دساها) لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه والإيذان بتعلق القسم به أيضاً أصالة أى خسر
من نقصها وأخفاها بالفجور وأصل دسى دسس كتقضى وتقضض وقيل هو كلام تابع لقوله تعالى
١١ فألهمها فجورها وتقواها بطريق الاستطراد وإنما الجواب ما حذف تعويلا على دلالة قوله تعالى (كذبت
ثمود بطغواها) عليه كأنه قيل ليدمدمن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه السلام وهو على الأول استئناف وارد لتقرير مضمون
قوله تعالى وقد خاب من دساها والطغوى بالفتح الطغيان والباء للسببية أى فعلت التكذيب بسبب
طغيانها كما تقول ظلمنى بجراءته على الله تعالى أو صلة للتكذيب أى كذبت بما أوعدت به من العذاب
ذى الطغوى كقوله تعالى فأهلكوا بالطاغية وقرىء بطغواها بضم الطاء وهو أيضاً مصدر كالرجعى
١٢ (إذ انبعث أشقاها) منصوب بكذبت أو بالطغوى أى حين قام أشقى ثمود وهو قدار بن سالف أو
هو ومن تصدى معه لعقر الناقة من الأشقياء فإن أفعل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد
١٣ والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل فى الرضا به (فقال
* لهم) أى لثمود (رسول الله) أى صالح عليه السلام عبر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته
* وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم فى الطغيان وهو السر فى إضافة الناقة إلى الله تعالى فى قوله تعالى (ناقة الله)

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ٩١ الشمس

وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ٩١ الشمس

أى ذروا ناقة الله (وسقياها) ولا تذودوها عنها فى نوبتها (فكذبوه) أى فى وعيده بقوله تعالى ١٤
ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم وقد جوز أن يكون ضمير لهم للأشقين ولا يلائمه ذكر سقياها
(فعقروها) أى الأشقى والجمع على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله وقال قتادة بلغنا أنه لم يعقرها حتى *
تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان أفضل الناس
(فدمدم عليهم ربهم) فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمدمة إذا ألبسها الشحم (بذنبهم) *
بسبب ذنبهم المحكى والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب
(فسواها) أى الدمدمة بينهم لم يفلت منهم أحد من صغير وكبير أو فسوى ثمود بالأرض أو سواها *
فى الهلاك (ولا يخاف عقباها) أى عاقبتها وتبعتها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقى بعض الإبقاء ١٥
وذلك أنه تعالى لا يفعل فعلا إلا بحق وكل من فعل بحق فإنه لا يخاف عاقبة فعله وإن كان من شأنه الخوف
والواو للحال أو للإستئناف وقرىء فلا يخاف وقرىء لم يخف . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شىء طلعت عليه الشمس والقمر .

سورة الشمس

مكية بلاخلاف وآيها ست عشرة آية في المكي والمدني الأول وخمس عشرة في الباقية ولما ختم سبحانه السورة المتقدمة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أعاد جل شأنه في هذه السورة الفريقين على سبيل الفذلكة بقوله سبحانه قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وفي هذه فألهمها فجورها وتقواها وهو كالبيان لقوله تعالى في الاولى وهديناه النجدين على أول التفسيرين وختم سبحانه الاولى بشيء من أحوال الكفرة في الآخرة وختم جل وعلا هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا فقال عز من قائل

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أي ضوئها كما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس والمراد إذا أشرقت وقام سلطانها وقال بعض المحققين حقيقة الضحى تباعد الشمس عن الافق الشرقي المرئي وبروزها للناظرين ثم صار حقيقة في وقته ثم انه قيل لاول الوقت ضحوة ولما يليه ضحى ولما بعده الى قريب الزوال ضحاء بالفتح والمد فاذا أضيف الى الشمس فهو مجاز عن اشراقها كما هنا ونقل عن المبرد أن الضحى مشتق من الضح وهو نور الشمس والالف مقلوبة من الحاء الثانية وكذلك الواو من ضحوة مقلوبة منها وتعقبه أبو حيان بقوله لعله مختلق عليه لان المبرد أجل من أن يذهب الى هذا وهذان مادتان مختلفتان لا تشتق احداهما من الاخرى وأجيب بانه لم يرد الاشتقاق الصغير ولا يخفى حاله على الصغير والكبير وعن مقاتل ان ضحاها حرها وهو تفسير باللازم وعن مقاتل المراد به النهار كله وفيه انه تعالى أقسم به بعيد ذلك ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي تبعها فقيل باعتبار طلوعه وطلوعها أي اذا تلا طلوعه طلوعها بان طلع من الافق الشرقي بعد

طلوعها وذلك أول الشهر فان الشمس اذا طلعت من الافق الشرقي أول النهار يطلع بعدها القمر لكن لا سلطان له فيرى بعد غروبها هلالا ومناسبة ذلك للقسم به لانه وصف له بابتداء أمره فكان الضحى كشباب النهار فكذا غرة الشهر كولادته وقيل باعتبار طلوعه وغروبها أي اذا تلا طلوعه غروبها وذلك في ليلة البدر رابع عشر الشهر فانه حينئذ في مقابلة الشمس والبعد بينهما نصف دور الفلك فاذا كانت في النصف الفوقاني منه أعني مايلي رؤسنا كان القمر في التحتاني منه أعني مايلي اقدامنا فاذا غربت طلع من الافق الشرقي وهو المروى عن قتادة وقولهم سمي بدراً لانه يسبق طلوعه غروب الشمس فكأنه بدرها بالطلوع لاينافيه لانه مبني على التقريب ومناسبة ذلك للقسم به لانه وقت ظهور سلطانه فيناسب تعظيم شأنه وقال ابن زيد تبعها في الشهر كله ففي النصف الاول تبعها بالطلوع وفي الآخر بالغروب ومراده ماذكر في القولين وقيل المراد تبعها في الاضاءة بأن طلع وظهر مضيئاً عند غروبها آخذا من نورها وذلك في النصف الاول من الشهر فانه فيه يأخذ كل ليلة منه قدرا من النور بخلافه في النصف الثاني وهو مروى عن ابن سلام واختاره الزمخشري وقال الحسن والفراء كما في البحر أي تبعها في كل وقت لانه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك وأنكر بعض الناس ذهاب أحد من السلف الى أن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس وزعم أنه رأى المنجمين لاغير وما ذكر حجة عليه والحجة عن أصل المسألة أظهر من الشمس وهي اختلاف تشكلاته النورية قربا وبعداً منها مع ذهاب نوره عند حيلولة الارض بينه وبينها وكون الاختلاف لاحتمال أن يكون أحد نصفيه مضيئاً والنصف الآخر غير مضيء وأنه يتحرك على محوره حركة وضعية حتى يرى كل نصف منهما تدريجا وكون ذهاب النور عند الحيلولة لاحتمال حيلولة جسم كثيف بيننا وبينه لانراه أضعف من حبال القمر كما لا يخفى وقال الزجاج وغيره تلاها معناه امتلأ واستدار فكان تابعا لها في الاستدارة وكمال النور ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيهَا ﴾ أي جلى النهار الشمس أي أظهرها فانها تنجلي وتظهر اذا انبسط النهار ومضى منه مدة فالاسناد مجازي كالاسناد في نحو صام نهاره وقيل الضمير المنصوب يعود على الارض وقيل على الدنيا والمراد بها وجه الارض وما عليه وقيل يعود على الظلمة وجلاها حينئذ بمعنى ازالها وعدم ذكر المرجع على هذه الاقوال للعلم به والاول أولى لذكر المرجع واتساق الضمائر وجوز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر في جلاها عليه عائداً على الله عزوجل كأنه قيل والنهار اذا جلى الله تعالى الشمس فيكون قد اقسم سبحانه بالنهار في أكمل حالاته وهو كما ترى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَيهَا ﴾ أي الشمس فيغطي ضوءها والاسناد كما مر وقيل أي الارض وقيل أي الدنيا وجيء بالمضارع هنا دون الماضي كما في السابق بأن يقال اذا غشيها قال أبو حيان رعاية للفاصلة ولم يقل غشاها لانه يحتاج الى حذف أحد المفعولين لتعديه اليهما فانه يقال غشيته كذا كما قال الراغب كذا قيل وقال بعض الاجلة جيء بالمضارع للتنبيه على استواء الازمنة عنده تعالى شأنه وقال الخفاجي الاولى أن يقال المراد بالليل الظلمة الحادثة بعدم الضوء لا العدم الاصلي والظلمة الاصلية فان هذه أظهر في الدلالة على القدرة وهي مستقبلة بالنسبة لما قبلها فلا بد من تغيير التعبير ليدل على المراد واستصعب الزمخشري الامر في نصب اذا بأن ما سوى الواو الاولى ان كانت عاطفة لزم العطف على معمولي عاملين مختلفين كعطف النهار مثلا على الشمس المعمول لحرف القسم وعطف الظرف أعني اذا في اذا جلاها على نظيرتها في اذا تلاها المعمولة لفعل القسم وان كانت قسمية لزم اجتماع المقسمات المتعددة على جواب واحد وقد استكرهه الخليل وسيبويه وأجاب باختيار الشق الاول ونفي ما لزمه فقال ان واو القسم مطرح معها ابراز الفعل اطراحا كليا (١) فكان لها شأن

(١) وصرح ابن كيسان بجواز التصريح بفعل القسم مع الواو فلا تغفل اهـ منه

خلاف شأن الباء حيث أبرز معها الفعل تارة وأضمر أخرى فكانت الواو قائمة مقام فعل القسم وباؤه سادة مسدهما معا والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو فهي عاملة الجر وعاملة النصب فالعطف من قبيل العطف على معمولى عامل واحد وهذا كما تقول ضرب زيد عمرا وبكر خالدا فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذى هو عاملها انتهى وأنت تعلم ان أول الواوات العواطف هنا ليس معها ماتعمل فيه النصب فلعله أراد انها تعمل ذلك ان كان هناك منصوب أو هي عاملة باعتبار ان معنى والشمس وضحاها والشمس وضوئها اذا أشرقت وفيه أيضا أنه لم يقل أحد بأن الحروف العواطف عوامل وأيضا الاشكال مبنى على امتناع العطف على معمولى عاملين مطلقا حتى لو جوز مطلقا أو بشرط كون المعطوف مجرورا على ماذهب اليه جمع كما في قولك في الدار زيد والحجرة عمرو لم يكن اشكال وأيضا هو مبنى على قبول هذا الاستكراه وعدم امكان التخلص من الاجتماع بتقدير جواب لكل من المقسمات حتى اذا لم يقبل أو قبل وقدر لكل جواب لم يبق أشكال وأيضا هو مبنى على أن اذا ظرفية وهو ممنوع لجواز أن تكون قد تجردت عن الظرفية وحينئذ تكون بدلا مما بعد الواو كما قيل في قوله

وبعد غد يالهف نفسى من غد ✡ اذا راح أصحابى ولست برائح

ان اذا بدل من غد وعلى تسليم أنها ظرفية يجوز أن يقدر مع كل مضاف تتعلق به كان يقدر وتلو القمر اذا تلاها وتجلية النهار اذا جلاها وغشيان الليل اذا يغشاها أو تجعل متعلقة بمحذوف وقع حالا مقدرة مما تليه أى أقسم بالقمر كائنا اذا تلاها وبالليل كائنا اذا جلاها كما زعمه بعضهم وفيه بحث وأيضا يرد على الزمخشرى مثل قوله تعالى والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس لان الواو هنالك عاطفة وقد تقدم صريح فعل القسم كما ذكره الشيخ ابن الحاجب على أن التحقيق كما قال بعض المحققين أن الظرف ليس معمولا لفعل القسم لفساد المعنى اذا التقييد بالزمان غير مراد حالا كان أو استقبالا وانما هو معمول مضاف مقدر من نحو العظمة لان الاقسام بالشيء اعظام له فكأنه أقسم بعظمة زمان كذا وماقيل عليه من أن اقسامه تعالى بشيء مستعار لاظهار عظمته وابانة شرفه فيجوز تقييده باعتبار جزء المعنى المراد يعنى الاظهار وأيضا اذا كان الاقسام اعظاما لغا تقديره فلو سلم فالاستعارة اما تبعية أو تمثيلية وعلى كل حال فليس ثمت مايكون متعلقا بحسب الصناعة والتقدير ليتعلق به وليظهر ما أريد منه مؤكداً فلا لغوية ﴿ والسَّمَاءِ ومَا بَنَيهَا ﴾ أى ومن بناها وايثار ما على من لارادة الوصفية تفخيما على ما تقدم في وما ولد كانه قيل والقادر العظيم الشأن الذى بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤها والمراد به ايجادها بحيث تدل على ذلك ويستدل بها عليه وهو أولى من تفسيره ببانيها لاشعاره بالمراد من البناء (١) وكذا الكلام في قوله تعالى ﴿ والأَرْضِ ومَا طَحَيهَا ﴾ أى بسطها من كل جانب ووطأها كدحاها ويكون طحا بمعنى ذهب كقول علقمة

طحابك قلب فى الحسان طروب ✡ بعيد الشباب عصر حان مشيب

وبمعنى أشرف وارتفع ومن أيمانهم لا والقمر الطاحى ويقال طحا يطحو طحوا وطحى يطحى طحيا وقوله سبحانه ﴿ ونَفْسٍ ومَا سَوَّيهَا ﴾ أى أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالها وذلك بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة والباطنة والتنكير للتكثير وقيل للتفخيم على أن المراد بالنفس آدم عليه السلام والاول أنسب بجواب القسم الآتى ومن ذهب الى ذلك جعله من الاستخدام وذهب الفراء والزجاج والمبرد وقتادة وغيرهم الى أن مافي المواضع الثلاث مصدرية أى

(١) وهو أنه ذكر للاستدلال اهـ منه

وبنائها وطحوها وتسويتها وتعقبه الزمخشرى بانه ليس بالوجه لقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيهَا﴾
ومايؤدى اليه من فساد النظم وذلك على مافي الحواشى لما يلزم من عطف الفعل على الاسم وانه لا يكون له
فاعل لا ظاهر وهو ظاهر ولا مضمر لعدم مرجعه واعترض بان الاخير منتقض بالافعال السابقة أعنى بناها
طحاها سواها على أن دلالة السياق كافية في صحة الاضمار وأما الاول ففيه أن عطف الفعل على الاسم
ليس بفاسد وإن كان خلاف الظاهر على أنه عطف على مابعد ما كانه قيل ونفس وتسويتها فالهامها فجورها
وتقواها واعترض هذا بان الفاء يدل على الترتيب من غير مهلة والتسوية قبل نفخ الروح والالهام بعد البلوغ
وأجيب بان التسوية تعديل الاعضاء والقوى ومنها المفكرة والالهام عبارة عن بيان كيفية استعمالها في
النجدين في هذا المحل وهو غير مفارق عنه منذ سوى نعم يزداد بحسب ازدياد القوى كيفية لا وجودا
على ان المهلة في نحوها عرفي وقد يعد متعقبا دون تراخ ثم أنه مشترك الالزام ولا معنى لقول الطيبى
النظم السرى يوجب موافقة القرائن فلا يجوز ونفس وتسويتها فألهمها الله فهى حاصلة وإنما ذلك بناء
على توهم ان قوله تعالى فألهمها جملة وبالجملة لا يلوح فساد هذا الوجه وأبى القاضى عبد الجبار الا المصدرية
دون الموصولية قال لما يلزم منها تقديم الاقسام بغير الله تعالى على اقسامه سبحانه بنفسه عز وجل
وأجاب عنه الامام بأن أعظم المحسوسات الشمس فذكرها الله تعالى مع أوصافها الاربعة الدالة على
عظمها ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة ووصفها جل وعلا بصفات ثلاث ليحظى العقل بادراك جلال
الله تعالى وعظمته سبحانه كما يليق به جل جلاله ولا ينازعه الحس فكان ذلك طريقا الى جذب العقل
من حضيض عالم المحسوسات الى بيداء أوج كبريائه جل شأنه وجوز أن تكون ما عبارة عن الامر الذى
له بنيت السماء وطحيت الارض وسويت النفس من الحكم والمصالح التى لا تحصى ويكون اسناد الافعال اليها
مجازا وفاعل ألهمها يجوز أن يكون ذلك أمر ويكون الاسناد مجازا أيضا وهو كما ترى والفجور والتقوى على ما
أخرج عبد بن حميد وغيره عن الضحاك المعصية والطاعة مطلقا قلبيين كانا أو قالبيين والهامهما النفس على
ما أخرج هو وابن جرير وجماعة عن مجاهد تعريفهما اياها بحيث تميز رشدها من ضلالها وروى ذلك
عن ابن عباس كما فى البحر وقريب منه قول ابن زيد ألهمها لفجورها وتقواها بينهما لها وأخرج ابن المنذر
وابن أبى حاتم وغيرهما نحوه عن قتادة والآية على ذلك نظير قوله تعالى وهديناه النجدين وقدم الفجور
على التقوى لان الهامه بهذا المعنى من مبادى تجنبه وهو تخلية والتخلية مقدمة على التحلية وقيل قدم
مراعاة للفواصل وأضيفا الى ضمير النفس قيل اشارة الى ان الملهم للنفس فجور وتقوى قد استعدت لهما
فيهما لها بحكم الاستعداد وقيل رعاية للفواصل أيضا وقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيهَا﴾ جواب القسم على ما
أخرجه الجماعة عن قتادة واليه ذهب الزجاج وغيره وحذف اللام كثير لا سيما عند طول الكلام المقتضى
للتخفيف أو لسده مسدها وفاعل زكاها ضمير من والضمير المنصوب للنفس وكذا في قوله تعالى ﴿وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّيهَا﴾ وتكرير قد فيه لابراز الاعتناء بتحقيق مضمونه والايذان بتعلق القسم به أصالة والتزكية
التنمية والتدسية الاخفاء وأصل دسى دسس فابدل من ثالث المتماثلات ياء ثم أبدلت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها
واطلاق بعضهم فقال ابدل من ذلك حرف علة كما قالوا في تقضض تقضى ودسس مبالغة فى دس بمعنى اخفى قال الشاعر

ودسست عمرا في التراب فأصبحت ✡ حلائله منه أرامل ضيعا

وفي الكشاف التزكية الانماء والاعلاء والتدسية النقص والاخفاء أى لقد فاز بكل مطلوب ونجا من
كل مكروه من أنمى نفسه واعلاها بالتقوى علما وعملا ولقد خسر من نقصها واخفاها بالفجور

جهلا وفسوقا وجوز ان تفسر التزكية بالتطهير من دنس الهيولى والتدسية بالاخفاء فيه والتلوث به وايا ما كان ففي الوعد والوعيد المذكورين مع اقسامه تعالى عليهما بما اقسم به مما يدل على العلم بوجوده تعالى ووجوب ذاته سبحانه وكمال صفاته عز وجل ويذكر عظائم آلائه وجلائل نعمائه جل وعلا من اللطف بعباده مالايخفى وقوله تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيهَا) استئناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى وقد خاب من دساها وجعل الزمخشري قوله تعالى قد افلح الخ تابعا لقوله تعالى فالهمها الخ على سبيل الاستطراد وأبى أن يكون جواب القسم وجعل الجواب محذوفا مدلولا عليه بهذا كانه قيل ليدمدمن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحا عليه السلام فقيل ان ذلك لما يلزم من حذف اللام وأنه لايليق بالنظم المعجز أن يجعل أدنى الكمالين أعني التزكية لاختصاصها بالقوة العملية المقصود بالاقسام ويعرض عن أعلاهما أعني التحلية بالعقائد اليقينية التي هي لب الألباب وزبدة ماخضته الاحقاب ولو سلم عدم الاختصاص فهي مقدمة التحلية في البابين وأما حذف المقسم عليه فكثير شائع لاسيما في الكتاب العزيز وتعقب بان حذف اللام كثير لاسيما مع الطول وهو أسهل من حذف الجملة بتمامها وقد ذكره في قد أفلح المؤمنون فاحدا مما بدا وأن التزكية مراداً بها الانماء لااختصاص لها وليست مقدمة بل مقصودة بالذات ولو سلم فلامانع من الاعتناء ببعض المقدمات أحيانا لتوقف المقاصد عليها فتدبر وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال في فألهمها ألزمها وأخرجه الديلمي عن أنس مرفوعا وعلى ذلك قال الواحدي وصاحب المطلع الالهام أن يوقع في القلب التوفيق والخذلان فاذا أوقع سبحانه في قلب عبد شيئاً منهما فقد ألزمه سبحانه ذلك الشيء ويزيد ذلك قوة ما أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقال عليه الصلاة والسلام لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لقدرة العبد واختياره مدخل في الفجور والتقوى بالكلية وان قيل أن مآله الى خلق الله تعالى اياهما ليقال يأباه حينئذ قوله تعالى قد أفلح من زكاها الخ حيث جعل فيه العبد فاعل التزكية بالتقوى والتدسية بالفجور لان الاسناد يقتضي قيام المسند ويكفي فيه المدخلية المذكورة ولا يتوقف صحة الاسناد حقيقة الى العبد على كون فعله الايجاد فالاستدلال بهذا الاسناد على كونه متمكنا من اختيار ماشاء من الفجور والتقوى وايجاده اياه بقدرة مستقلة فيه على خلاف ما يقوله الجماعة ليس بشيء على أن الضمير المستتر في زكاها وكذا في دساها لله عز وجل والبارز لمن بتأويل النفس فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك يقول الله تعالى قد أفلح من زكى الله تعالى نفسه فهداه وقد خاب من دسى الله تعالى نفسه فأضله بل أخرج عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي أنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول في قوله تعالى قد أفلح من زكاها الآية أفلحت نفس زكاها الله تعالى وخابت نفس خيبها الله تعالى من كل خير وأخرج الامام أحمد وابن أبي شيبة ومسلم والنسائي عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها وفي رواية الطبراني وغيره عن ابن عباس انه عليه الصلاة والسلام اذا تلا هذه الآية وقف وقال ذلك ولهذه الاخبار ونحوها قال بعضهم ان ذلك هو

المرجع ورجحه صاحب الانتصاف بان الضمائر في والسماء وما بناها الخ تكون عليه متسقة عائدة كلها الى الله تعالى وبأن قوله تعالى قد أفلح من تزكى أوفق به لان تزكى مطاوع زكى فيكون المعنى قد أفلح من زكاه الله تعالى فتزكى ومع هذا كله لا ينبغي ان ينكر ان المعنى السابق هو السابق الى الذهن وما ذكر من الاخبار ليس نصا في تعيين المعنى الآخر نعم هو نص في تكذيب الزمخشري في زعمه انه من تعكيس القدرية يعني بهم اهل السنة والجماعة فتأمل. والطغوى مصدر من الطغيان بمعنى تجاوز الحد في العصيان فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء بان قلبوا الياء واوا في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا في الصفة امرأة صديا وخزيا وفي الاسم تقوى وطغوى كذا في الكشاف وغيره وكلام الراغب يدل على ان طغى واوى ويائى حيث قال يقال طغوت وطغيت طغوانا وطغيانا فلا تغفل. والباء عند الجمهور للسببية أى فعلت التكذيب بسبب طغيانها كما تقول ظلمنى الخبيث بجرائته على الله تعالى وجعلها الزمخشري للاستعانة والامر سهل وجوز ان تكون صلة للتكذيب على معنى كذبت بما اوعدت به في لسان نبيها من العذاب ذى الطغوى أى التجاوز عن الحد والزيادة ويوصف العذاب بالطغيان بهذا المعنى كما في قوله تعالى فاهلكوا بالطاغية وقد يوصف بالطغوى مبالغة كما يوصف بسائر المصادر لذلك فلا يكون هناك مضاف محذوف. وقرأ الحسن ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة طغواها بضم الطاء وهو مصدر أيضا كالرجعى والحسنى في المصادر إلا أنه قيل كان القياس الطغيا كالسقيا لان فعلى بالضم لا يفرق فيه بين الاسم والصفة كانهم شذوا فيه فقلبوا الياء واوا وأنت تعلم أن الواو عند من يقول طغوت أصلية ﴿إِذِ انبَعَثَ﴾ متعلق بكذبت أو بطغوى وانبعث مطاوع بعثه بمعنى أرسله والمراد إذ ذهب لعقر الناقة ﴿أَشْقَاهَا﴾ أى أشقى ثمود وهو (١) قدار بن سالف أو هو ومن تصدى معه لعقرها من الاشقياء اثنان على ماقال الفراء أو أكثر فان افعل التفضيل اذا اضيف الى معرفة يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل في الرضا به ولخبائث غير ذلك يعلمها الله تعالى فيهم هي فوق خبائث من عداهم ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ أى لثمود أو لاشقاها على ماقيل بناء أن المراد به جمع ولا يأباه وسقياها كما لا يخفى ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ هو صالح عليه السلام وعبر عنه بعنوان الرسالة ايذانا بوجوب طاعته وبيانا لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان وهو السر في اضافة الناقة اليه تعالى في قوله سبحانه ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ وهو نصب على التحذير وشرطه ليس تكرير المحذر منه أو كونه محذرا بما بعده فقط ليقال هو منصوب بتقدير ذروا أو احذروا لا على التحذير بل شرطه ذاك أو العطف عليه كما هنا على مانص عليه مكي والكلام على حذف مضاف أى احذروا عقر ناقة الله أو المعنى على ذلك وان لم يقدر في نظم الكلام وجوز أن يكون التقدير عظموا أو الزموا ناقة الله وليس بشيء ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أى واحذروا سقياها فلا تتعرضوا بمنعها عنها في نوبتها ولا تستأثروا بها عليها وقيل الواو للمعية والمراد ذروا ناقة الله مع سقياها ولا تحولوا بينهما وهو كما ترى وقرأ زيد بن علي ناقة الله بالرفع فقيل أى هكم ناقة الله وسقياها فلا تعقروها ولا تستأثروا بالسقيا عليها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أى في وعيده اياهم كما حكى عنه بقوله تعالى ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم فالتكذيب لخبر مقدر ويجوز أن يكون الخبر تضمنه الامر التحذيري السابق وهو الخبر بحلول العذاب ان فعلوا ماحذرهم منه وقيل ان ماقاله لهم من الامر قاله ناقلا له عن الله تعالى كما يؤذن بذلك التعبير عنه عليه السلام بعنوان الرسالة ومآل ذلك أنه قال لهم انه قال الله تعالى

(١) قدار بوزن غلام ومعناه الجزار اهـ منه

ناقة الله وسقياها فالتكذيب لذلك وهو وجه لا بأس به ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى فنحروها أو فقتلوها وضمير الجمع للاشقى وجمعه على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله قال قتادة بلغنا انه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ فاطبق عليهم العذاب وقالوا دمدم عليه القبر أى أطبقه وهو مما تكرر فيه الفاء فوزنه فعفل لا فعلل من قولهم ناقة مدمومة اذا لبسها الشحم وغطاها وقال فى القاموس معناه أتم العذاب عليهم وقال مؤرج الدمدمة اهلاك باستئصال وفي الصحاح دممدمت الشيء ألزقته بالارض وطحطحته وقرأ ابن الزبير فدهدم بهاء بين الدالين والمعنى كما تقدم ﴿ بِذَنْبِهِمْ ﴾ بسبب ذنبهم المحكى والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للانذار بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب ﴿ فَسَوَّيهَا ﴾ الضمير للدمدمة المفهومة من دمدم أى فجعل الدمدمة سواء بينهم أو جعلها عليهم سواء فلم يفلت سبحانه منهم أحدا لاصغيرا ولا كبيرا أو هو لثمود والتأنيث باعتبار القبيلة كما فى طغواها وأشقاها والمعنى ما ذكر أيضا أو فسواها بالارض ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ أى الرب عز وجل ﴿عُقْبَيهَا﴾ أى عاقبتها وتبعتها كما يخاف المعاقبون من الملوك عاقبة مايفعلونه وتبعته وهو استعارة تمثيلية لاهانتهم وأنهم أذلاء عند الله جل جلاله والواو للحال أو للاستئناف وجوز أن يكون ضمير لا يخاف للرسول والواو للاستئناف لا غير على ما هو الظاهر أى ولا يخاف الرسول عقبى هذه الفعلة بهم اذ كان قد أنذرهم وحذرهم وقال السدى والضحاك ومقاتل والزجاج وابو على الواو للحال والضمير عائد على اشقاها اى انبعث لعقرها وهو لا يخاف عقبى فعله لكفره وطغيانه وهو ابعد مماقبله بكثير وقرأ أبى والاعرج ونافع وابن عامر فلايخاف بالفاء وقرىء ولم يخف بواو وفعل مجزوم بلم هذا واختلاف فى هؤلاء القوم هل آمنوا ثم كفروا أولم يؤمنوا أصلا فالجمهور على الثانى وذهب بعض الى انهم آمنوا وبايعوا صالحا مدة ثم كذبوه وكفروا فاهلكوا بما فصل فى موضع آخر وقال الشيخ الاكبر محيي الدين قدس سره فى فصوصه انهم وقوم لوط عليه السلام لا نجاة لهم يوم القيامة بوجه من الوجوه ولم يساو غيرهم من الامم المكذبة المهلكة فى الدنيا كقوم نوح عليه السلام بهم ولكلامه قدس سره أهل يفهمونه فارجع اليهم فى فهمه ان وجدتهم * وذكر بعض أهل التاويل ان الشمس اشارة الى ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى وضحاها اشارة الى الحقيقة المحمدية والقمر اشارة الى ماهية الممكن المستفيدة للوجود من شمس الذات والنهار اشارة الى العالم بسائر أنواعه الذى ظهرت به صفات جمال الذات وجلاله وكماله والليل اشارة الى وجود مايشاهد من أنواع الممكنات الساتر فى أعين المحجوبين للوجود الحق والسماء اشارة الى عالم العقل والارض اشارة الى عالم الجسم والنفس معلومة وناقة الله اشارة الى راحلة الشوق الموصلة اليه سبحانه وسقياها اشارة الى مشربها من عين الذكر والفكر وقال بعض آخر الشمس اشارة الى الوجود الحق الذى هو عين الواجب تعالى فهو أظهر من الشمس الله نور السموات والارض وقال شيخ مشايخنا البندنيجى قدس سره

ظاهر أنت ولكن لاترى ✡ لعيون حجبتها النقط

وضحاها اشارة الى أول التعينات باى اسم سميته والقمر اشارة الى الاعيان الثابتة المفاضة بالفيض الاقدس أو الشمس اشارة الى الذات وضحاها اشارة الى وجودها والاضافة للتغاير الاعتبارى والقمر اشارة الى أول التعينات والنهار اشارة الى الممكنات المفاضة بالفيض المقدس والليل اشارة اليها أيضا باعتبار نظر المحجوبين أو النهار اشارة إلى صفة الجمال والليل اشارة الى صفة القهر والجلال والسماء اشارة الى عالم اللطافة وذكر النفس بعد مع دخولها فى هذا العالم للاعتناء بشأنها والارض اشارة الى عالم الكثافة وناقة الله اشارة الى الطريقة وسقياها

مشربها من عين الشريعة وقيل غير ذلك والله تعالى الهادى الى سواء السبيل

سورة الشمس

مكية بٱتفاق، وهي خَمْسَ عَشْرَةَ آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

قال مجاهد: ﴿وضُحاها﴾ أي ضوئها وإشراقها. وهو قَسَم ثان. وأضاف الضحى إلى الشمس، لأنه إنما يكون بٱرتفاع الشمس. وقال قتادة: بهاؤها. السُّدّي: حرّها. وروى الضحاك عن ٱبن عباس: ﴿وضحاها﴾ قال: جعل فيها الضوء وجعلها حارة. وقال اليزيديّ: هو ٱنبساطها. وقيل: ما ظهر بها من كل مخلوق؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض

---

(١) آية ٢٨، ٤٢ سورة الواقعة. (٢) كان ينكر على الكسائي همز (مؤصدة).

كلها. حكاه الماورديّ: والضُّحَا: مؤنثة. يقال: ٱرتفعت الضُّحا، [وهي] فوق الضَّحْو[1]. وقد تُذَكَّر. فمن أنّث ذهب إلى أنها جمع ضَحْوَة. ومن ذكَّر ذهب إلى أنه ٱسم على فُعَل، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ[2]. وهو ظرف غير متمكن مثل سَحَر. تقول: لقِيتُه ضُحاً وضُحَا؛ إذا أردت به ضُحا يومِك لم تنوّنه. وقال الفرّاء: الضُّحا هو النهار؛ كقول قتادة. والمعروف عند العرب أن الضحا: إذا طلعت الشمس وبُعَيْد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضَّحاء بالمد. ومن قال: الضُّحا: النهار كله، فذلك لدوام نور الشمس. ومن قال: إنه نور الشمس أو حرها، فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس. وقد ٱستدل من قال: إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى: ﴿ولا تَضْحَى﴾ أي لا يؤذيك الحرّ. وقال المبرد: أصل الضُّحَا من الضِّحّ، وهو نور الشمس، والألف مقلوبة من الحاء الثانية. تقول: ضَحْوَة وضَحَوَات، وضَحَوَاتٌ وضُحَا، فالواو من (ضَحْوَة) مقلوبة عن الحاء الثانية، والألف في (ضُحَا) مقلوبة عن الواو. وقال أبو الهيثم: الضِّح: نقيض الظّل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله الضُّحَا، فٱستثقلوا الياء مع سكون الحاء، فقلبوها ألفاً.

[٢] ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

أي تَبِعها: وذلك إذا سقطت رِيءَ الهلال. يقال: تَلَوْت فلاناً: إذا تَبِعته. قال قتادة: إنما ذلك ليلة الهلال، إذا سَقَطت الشمس رِيءَ[3] الهلال. وقال ٱبن زيد: إذا غَرَبت الشمس في النصف الأول من الشهر، تلاها القمر بالطلوع، وفي آخر الشهر يتلُوها بالغروب. الفراء: ﴿تلاها﴾: أخذ منها؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس. وقال قوم: ﴿والقمرِ إذا تَلَاها﴾ حين ٱستوى وٱستدار، فكان مِثلَها في الضياء والنور؛ وقاله الزجاج.

---

(١) كذا في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي. وفي نسخ الأصل وتفسير ابن عادل: «فوق الصخور». تحريف. يريد أن الضحا: أشد ارتفاعاً من الضحو والضحوة (كما في «اللسان»: ضحا).

(٢) الصرد: طائر فوق العصفور. والنغر: فرخ العصفور.

(٣) أصله (رئي): قدّمت الياء على الهمزة.

[٣] ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝﴾.

أي كشفها. فقال قوم: جلّى الظلمة؛ وإن لم يجر لها ذكر؛ كما تقول: أضحت باردة؛ تريد أضحت غَداتُنا باردة. وهذا قول الفرّاء والكلبيّ وغيرهما. وقال قوم: الضمير في ﴿جَلاَّها﴾ للشمس؛ والمعنى: أنه يبين بضوئه جِرْمها. ومنه قول قيس بن الخَطِيم:

تَجلَّت لنا كالشمسِ تحتَ غَمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ

وقيل: جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر، لاستتاره ليلاً وٱنتشاره نهاراً. وقيل: جَلَّى الدنيا. وقيل: جَلَّى الأرض؛ وإن لم يجر لها ذكر؛ ومثله قوله تعالى: ﴿حتى تَوَارَتْ بِالحجابِ﴾(1) على ما تقدّم آنفاً.

[٤] ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝﴾.

أي يغشى الشمس، فيَذْهَب بضوئها عند سقوطها؛ قاله مجاهد وغيره. وقيل: يغشى الدنيا بالظُّلَم، فتُظلم الآفاق. فالكناية ترجع إلى غير مذكور.

[٥] ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝﴾.

أي وبنيانها. فما مصدرية؛ كما قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبّي﴾(2) أي بغفران ربي؛ قاله قتادة، وٱختاره المبرد. وقيل: المعنى ومَن بناها؛ قاله الحسن ومجاهد؛ وهو ٱختيار الطبرِيّ. أي ومن خلقها ورفعها، وهو الله تعالى. وحُكِي عن أهل الحجاز: سُبحانَ ما سَبَّحَتْ له؛ أي سبحان مَنْ سَبَّحت له.

[٦] ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝﴾.

أي وطحوها. وقيل: ومَنْ طحاها؛ على ما ذكرناه آنفاً. أي بسطها؛ كذا قال عامة المفسرين؛ مثل دحاها. قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها: واحد؛ أي بسطها

---

(1) آية ٣٢ سورة ص. (2) آية ٢٧ سورة يس.

من كل جانب. والطَّحْو: البسط؛ طَحَا يطحُو طحْواً، وطَحَى يَطْحِي طَحْياً، وطَحَيت: اضطجعت؛ عن أبي عمرو، وعن ابن عباس: طحاها: قَسَمها. وقيل: خلقها؛ قال الشاعر:

وما تَدْرِي جَذِيمة من طَحَاها ولا مَنْ ساكِنْ العرشِ الرَّفيعِ

الماورديّ: ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خُلِق عليها. ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمر الطَّاحِي؛ أي المُشْرِفُ المشرق المرتفع. قال أبو عمرو: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض. يقال: ما أدري أين طَحَا ويقال: طحا به قلبه: إذا ذهب به في كل شيء. قال علقمة:

طَحَا بكَ قَلْبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

[٧] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

قيل: المعنى وتسويتها. ﴿فما﴾: بمعنى المصدر. وقيل: المعنى ومن سَوّاها، وهو الله عز وجل. وفي النفس قولان: **أحدهما** ـ آدم. **الثاني** ـ كل نفس منفوسة. وسوّى: بمعنى هيأ. وقال مجاهد: سوّاها: سَوَّى خَلْقها وعَدَّل. وهذه الأسماء كلها مجرورة على القَسَم. أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه.

[٨] ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ أي عَرَّفها؛ كذا رَوَى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد. أي عرفها طريق الفجور والتقوى؛ وقاله ابن عباس. وعن مجاهد أيضاً: عَرَّفها الطاعةَ والمعصية. وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عز وجل بعبده خيراً، ألهمه الخيرَ فعمِل به، وإذا أراد به السوء، ألهمه الشر فعمِل به. وقال الفَراء: ﴿فألهمها﴾ قال: عرّفها طريق الخير وطريق الشر؛ كما قال: ﴿وهَدَيْناه النَّجْدينِ﴾(١). وروى الضحاك عن ابن عباس قال: أَلْهَمَ المؤمن المتقي تقواه، وألهم الفاجر فجوره. وعن سعيد عن قتادة قال: بَيَّن لها فجورها وتقواها. والمعنى

(١) آية ١٠ سورة البلد.

متقارب. ورُوِي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجورَها وتقواها﴾ قال: «اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومَولاها». ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس: أن النبيّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ﴿فألهمَها فُجورَها وتَقْوَاها﴾ رفع صوته بها، وقال: «اللهم آتِ نفسِي تقواها، أنت ولِيها ومولاها، وأنت خيرُ من زكَّاها». وفي «صحيح مسلم»، عن أبي الأسود الدُّؤَلِيّ قال: قال لي عِمران بن حصين: أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم، ويَكْدَحون فيه، أشيء قُضِي ومَضَى عليهم من قَدَرِ سبق، أو فيما يَسْتقبلون[1] مما أتاهم به نبِيُّهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قُضِي عليهم، ومَضى عليهم. قال فقال: أفلا يكون ظُلْماً؟ قال: ففزِعت من ذلك فزَعاً شديداً، وقلت: كل شيء خَلْقُ اللَّهِ ومِلْك يده، فلا يُسْأَل عما يفعلُ وَهُمْ يُسْأَلون. فقال لي: يرحمك الله! إني لم أرِد بما سألتك إلا لأحزِر[2] عقلَك، إنّ رجلين من مُزَينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعملُ الناس اليوم ويَكْدَحون فيه: أشيء قُضِيَ عليهم ومضى فيهمْ من قَدَرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبِيُّهم. وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا بل شيء قُضِي عليهم ومضى فيهم. وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ونفسٍ وما سَوَّاها. فألهمها فجورها وتَقْواها﴾. والفجور والتقوى: مصدران في موضع المفعول به.

[٩] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾. [١٠] ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أفلحَ مَنْ زكَّاها﴾ هذا جواب القسم، بمعنى: لقد أفلح. قال الزجاج: اللام حذفت، لأن الكلام طال، فصار طوله عِوضاً منها. وقيل: الجواب محذوف؛ أي والشمس وكذا وكذا لَتُبْعثن. الزمخشريّ: تقديره لَيُدَمْدِمنّ الله عليهم؛ أي على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دَمْدَم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً. وأما ﴿قد أفلح من زكَّاها﴾ فكلام تابع لأوّله؛ لقوله: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾، على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم

(١) في بعض الأصول: «مما يستقبلون به... الخ».

(٢) أي لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك.

في شيء. وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف؛ والمعنى: قد أفلح من زَكّاها، وقد خاب من دَسّاها، والشمس وضحاها. ﴿أفلح﴾ فاز. ﴿مَنْ زَكَّاها﴾ أي من زكى الله نفسه بالطاعة. ﴿وقدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ أي خسِرت نفسٌ دَسَّها الله عز وجل بالمعصية. وقال ابن عباس: خابت نفس أضلها وأغواها. وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دسّ نفسه في المعاصي؛ قاله قتادة وغيره. وأصل الزكاة: النموّ والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر رَيْعُه، ومنه تزكية القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعه بالتعديل، وذكر الجميل. وقد تقدم هذا المعنى في أوّل سورة ﴿البقرة﴾[(١)] مستوفًى. فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البِر، شَهَر نفسه ورفعها. وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وارتفاعَ الأرض، ليشتهر مكانُها للمُعْتَفِين[(٢)]، وتوقد النار في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأَوْلاج والأطراف والأهضام[(٣)]، ليخفى مكانها عن الطالبين. فأولئك عَلَّوا أنفسهم وزَكُّوها، وهؤلاء أخفَوا أنفسهم ودَسُّوها. وكذا الفاجر أبداً خفِيّ المكان، زَمِرُ[(٤)] المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصي. وقيل: دساها: أغواها. قال:

وأَنتَ الذي دَسَّيْتَ عَمْراً فأصبحت ... حلائلُه منه أرامِلَ ضُيَّعا[(٥)]

قال أهل اللغة: والأصل: دسَّسَها، من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فأبدلت سينه ياء؛ كما يقال: قَصَّيْت أظفاري؛ وأصله قَصَّصْت أظفاري. ومثله قولهم في تَقَضَّضَ: تقضى. وقال ابن الأعرابي: ﴿وقدْ خابَ من دَسَّاها﴾ أي دس نفس في جملة الصالحين وليس منهم.

[١١] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) راجع ١/٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) المعتفي: كل طالب فضل أو رزق.

(٣) الأولاج: ما كان من كهف أو غار يلجأ إليه. والأهضام: أسافل الأودية.

(٤) الزمر: القليل. (٥) الذي في «اللسان» (مادة دسا):

وأنت الذي دسيت عمراً فأصبحت ... نساؤهم فيهم أرامل ضيع

وقال: دسيت: أغويت وأفسدت. وعمرو: قبيلة.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي بطغيانها، وهو خروجها عن الحدّ في العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. وعن ٱبن عباس ﴿بِطغواها﴾ أي بعذابها الذي وُعِدَتْ به. قال: وكان ٱسم العذاب الذي جاءها الطَّغْوى؛ لأنه طَغَى عليهم. وقال محمد بن كعب: ﴿بِطغواها﴾ بأجمعها. وقيل: هو مصدر، وخرج على هذا المخرج، لأنه أَشْكَلُ برؤوس الآي. وقيل: الأصل بطَغْياها، إلا أن ﴿فَعْلَى﴾ إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واواً، لِيُفصَل بين الاسم والوصف. وقراءة العامة بفتح الطاء. وقرأ الحسن والجَحْدرِي وحماد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر؛ كالرُّجْعَى والحُسْنى وشبههما في المصادر. وقيل: هما لغتان. ﴿إِذِ ٱنبعَثَ﴾ أي نهض. ﴿أشقاها﴾ لعَقْر الناقة. وٱسمه قُدَار بن سالِف. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[١] بيان هذا، وهل كان واحداً أو جماعة. وفي البخارِيّ عن عبد الله بن زَمْعة أنه سمع النبيّ ﷺ يخطُب، وذكر الناقة والذي عَقَرها، فقال رسول الله ﷺ: «إِذِ ٱنبعَثَ أَشْقاهَا، ٱنبعث لها رجل عزيز عارِم[٢]، منيع في رهطه، مثل أبي زَمَعة» وذكر الحديث. خرّجه مسلم أيضاً. وروى الضحاك عن عليّ: أن النبيّ ﷺ قال له: «أتدري من أشقى الأوّلين» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «عاقر الناقة - قال - أتدري من أشقى الآخرين» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك». ﴿فقال لَهُمْ رسولُ اللَّهِ﴾ يعني صالحاً. ﴿ناقَةَ اللَّهِ﴾ ﴿ناقةَ﴾ منصوب على التحذير؛ كقولك: الأسد الأسد، والصبيَّ الصبِيَّ، والحِذارَ الحِذارَ. أي احذروا ناقة الله؛ أي عَقْرها. وقيل: ذروا ناقة الله، كما قال: ﴿هذِهِ ناقة اللَّهِ لكم آية فذروها تأكُلْ فِي أرضِ اللَّهِ ولا تمسوها بِسوءٍ فيأخذَكُمْ عذابٌ أليمٌ﴾[٣]. ﴿وسُقْياها﴾ أي ذروها وشِربَها. وقد مضى في سورة ﴿الشعراء﴾[٤] بيانه والحمد للَّهِ. وأيضاً في سورة ﴿اقتربت[٥] الساعة﴾. فإنهم لما اقترحوا الناقة، وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شِربَ يوم من بئرهم، ولها شِربُ يوم مكان ذلك، فشقَّ ذلك عليهم.

(١) راجع ٧/ ٢٤١. (٢) العارم: الجبار المفسد الخبيث.
(٣) آية ٧٣ سورة الأعراف. (٤) راجع ١٣/ ١٣١.
(٥) راجع ١٧/ ١٤١.

﴿فكَذَّبوه﴾ أي كذبوا صالحاً عليه السلام في قوله لهم: «إنكُمْ تُعَذَّبونَ إنْ عَقَرْتُموها». ﴿فعقروها﴾ أي عقرها الأشقى. وأضيف إلى الكل، لأنهم رَضُوا بفعله. وقال قتادة: ذُكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم. وقال الفرّاء: عقرها اثنان: والعرب تقول: هذان أفضلُ الناس، وهذان خير الناس، وهذه المرأة أشقى القوم؛ فلهذا لم يقل: أَشْقَيَاها.

قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذابُ بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: دمدم عليهم قال: دَمَّرَ عَلَيْهِم ربُّهم بذَنبهم؛ أي بجُرمهم. وقال الفرّاء: دَمْدم أي أرجف. وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده. ويقال: دَمَّمْت على الشيء: أي أطبقت عليه، ودمم عليه القبرَ: أطبقه. وناقة مدمومة: أَلْبَسها الشحم. فإذا كرّرت الإطباق قلت: دَمْدَمْت. والدمدمة: إهلاك باستئصال؛ قاله المؤرِّج. وفي «الصحاح»: ودَمْدَمْت الشيء: إذا ألزقته بالأرض وطَحْطَحْتُه. ودمدم الله عليهم: أي أهلكهم. القُشَيرِي: وقيل دَمْدَمت على الميت الترابَ: أي سَوَّيتُ عليه. فقوله: ﴿فدمدم عليهِم﴾ أي أهلكهم، فجعلهم تحت التراب. ﴿فَسَوّاها﴾ أي سَوّى عليهم الأرض. وعلى الأول ﴿فسوّاها﴾ أي فسوّى الدَّمدمة والإهلاك عليهم. وذلك أن الصيحة أهلكتهم، فأتت على صغيرهم وكبيرهم. وقال ابن الأنباريّ: دمدمَ أي غضِب. والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل. وقال بعض اللغويين: الدمدمة: الإدامة؛ تقول العرب: ناقة مَدْمدَمة أي سمينة. وقيل: ﴿فسوّاها﴾ أي فسوّى الأمة في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وضِيعهم وشريفهم، ذكرهم وأنثاهم. وقرأ ابن الزُّبير ﴿فَدَهْدَمَ﴾ وهما، لغتان؛ كما يقال: امتُقِع لونُه وانْتُقِع.

[١٥] ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

أي فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تَبِعة الدَّمدمة من أحد؛ قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد. والهاء في ﴿عُقْباها﴾ ترجع إلى الفَعْلة؛ كقوله: «مَن اغتسل يوم

الجمعة فبِها ونِعمتْ» أي بالفعلة والخصلة. قال السدّيّ والضحاك والكلبيّ: ترجع إلى العاقر؛ أي لم يخف الذي عقرها عُقْبى ما صنع. وقاله ٱبن عباس أيضاً. وفي الكلام تقديم وتأخير، مجازه: إذِ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقْباها. وقيل: لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم. وقرأ نافع وٱبن عامر ﴿فلا﴾ بالفاء، وهو الأجود؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول؛ أي فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم. والباقون بالواو، وهي أشبه بالمعنى الثاني؛ أي ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع. ورَوَى ٱبن وهب وابن القاسم عن مالك قالا: أخرج إلينا مالك مصحفاً لجدّه، وزعم أنه كتبه في أيام عُثمان بن عفان حين كتب المصاحف، وفيه: ﴿ولا يخاف﴾ بالواو. وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، اتباعاً لمصحفهم.